

תמיד יהודה שנהאפ

ישיר תריר תפסי החרנק ללأمم المآحدة برئاسة القاضى رآشارد رولدستون صراحة، عبر مئآت الصفحات، إلى أن إسرائيل قد ارتكبت جرائم حرب في غزة في العام 2009. من بين مجمل القرارات التي ينطوي عليها هذا التقرير، من الجدير الانتباه بصورة خاصة إلى حقيقة أنه من بين مجمل الأمور التي أقدمت إسرائيل على مهاجمتها في غزة كان المواطنین الفلستینیین الذين یخضعون تحت نیر احتلالها ولسلطتها. تكمن أهمية تقرير رولدستون – كتقارير لأطراف دولية أخرى خاصة بسراییفو وروندا على سبیل المثال – في كونه شهادة حية جمعت خلال وقت وقوع الحدث، وليس مجرد قراءة تاريخية تعود إلى الوراء، بشأن العلاقة المتبادلة بين مكانة الإقليم وبين مسائل خاصة بإدارة دولة الاحتلال للسكان. اتخذت إسرائيل بجميع مؤسساتها الرسمية قرارًا بأن "تقتل الرسول"، وادعت أن نتائج التقرير سوف تؤدي إلى المسّ بقدرة الدول الديمقراطية في محاربة الإرهاب مستقبلًا. إن ادعاء إسرائيل حول انتهاء احتلالها لغزة وأنها ليست الهيئة السيادية في القطاع هو ادعاء عار عن الصحة. فكما علمنا التاريخ الكولونيالي، يمكن لإدارة الاحتلال التحكم بواسطة جهاز تحكم عن بُعد أيضًا، من دون الحاجة لتواجد عسكري دائم أو مستوطنات لفرض احتلالها. لا زالت إسرائيل تدير نظام احتلال في غزة لأنها ترفض سلطة شرعية هناك، وتتحكم بالاقتصاد في قطاع غزة، وتسيطر على معايرها على اليابسة، وتحرّم الوصول إليها بحرًا وجوًّا، وتقوم وزارة الأمن باتخاذ قرارات بشأن عدد السعرات الحرارية التي يتعيّن على الرعايا في غزة أن يستهلكوها، وأي من البضائع يُسمح لها بالدخول إلى القطاع. إن الانتهاء الرسمي للاحتلال في غزة وخطط "الانسحاب" التي رافقته لم تضع حدًا للاحتلال الفعلي هناك، وإنما استمراره بأساليب أخرى فقط. كذلك علمنا التاريخ الكولونيالي أن دولاً كولونيالية عديدة امتنعت عن فرض سيادتها على مناطق قامت باحتلالها، ولكنها سيطرت عليها بواسطة فرض أنظمة خاصة مستقاة من نظريات ترسيم ملامح الأرض وإدارة السكان.

تقع مسألة العلاقة بين الأرض والسكان في صلب النصّ النظري الذي ارتأينا ترجمته. ونقدّم ولأول مرّة ترجمة عبرية للمحاضرة الرابعة التي ألقاها ميشيل فوكو في كولاج دي فرانس في العام 1978/1977 ضمن سلسلة محاضراته هناك تحت عنوان "أمن، أرض، سكان" (*Security, Territory, Population*). يصف دوتان ليشم في تقديمه اللامع تطوّر فكر فوكو بشأن "التحكم بالذهنية" (*Governmentality*)، لحظة نشوء الاقتصاد السياسي، والجذور الفكرية لما نطلق عليه تعبير الليبرالية الجديدة. تعتبر هذه المحاضرة فصلًا هامًا في تاريخ الفكر السياسي لأنها تحيل الضوء من العمل السياسي على مسألة

السيادة إلى أنظمة التحكم بالذهنية. يدعي فوكو أن اكتشاف الـ"سكان" قد حرر فنون الحكم من قبضتها الحصرية المحكمة للسيادة. فبينما تستند السيادة على القانون والأرض، يضيف التحكم بالذهنية مسألة إدارة السكان والاقتصاد السياسي وإدارة الحياة. تتضمن أنظمة إدارة السكان علم الإحصاء وعلم توزيع السكان، وإدارة مظاهر الجنس، ومسائل خاصة بالغنى والفقير، وقنوات تدفق رأس المال، ومستويات أسعار الفائدة والبطالة. يقول فوكو: "إن الحاكم الحقيقي لا يحتاج لأداة وخز، أي أداة بطش وقتل، أو لسيف، بغية فرض سلطته. ولكن يتعين عليه أن يتحلى بالصبر والعزوف عن النزعة الغضبية، أو بكلمات أخرى، لا يتعين عليه أن ينتزع الحق بواسطة القتل أو بإظهار جبروته..."، وإنما حق السيد بإدارة الحياة. تتيح لنا نظرية المعرفة هذه فرصة التفكير حول مسألة مفادها أن إدارة السكان وإدارة الحياة تربطهما علاقة جدلية مع الأرض ويشكلان السيادة. يؤكد فوكو على عدم الاستنتاج بأن السيادة قد أفلست، بل العكس من ذلك: يعيد فوكو الاقتصاد السياسي إلى مركز الحلبة بعد أن ذابت داخل السيادة. يقوم فوكو بقلب الصورة: ليست الدولة هي التي تتيح فنون الحكم، وإنما فنون الحكم وأنظمة التحكم بالذهنية هي التي تشكل الدولة. وعليه، يسعى فوكو إلى تقويض فكرة أن القانون هو المحور الأساس للفكر السياسي. ويقوم في معرض مجموعة محاضرات أخرى له ("يجب الدفاع عن المجتمع" *Society Must be Defended*) مرتبطة بمجموعة المحاضرات هذه بتطوير فكرة أن القانون "يتصلح" مع خطاب الحرب.

ترتبط فكرة تصالح القانون مع خطاب الحرب ارتباطاً مباشراً مع البحث النقدي حول حرب 1948، إذ أنها حالة واضحة لدمج خطاب الحرب بالقانون، وفي حالتنا: قانون المواطنة الإسرائيلي. إن الحرب هي حرب أهلية، استناداً إلى تعابير فوكو، إذ أنها ترى بقانون المواطنة محاولة للتصالح مع الحرب التي لم تنته بعد فعلياً. وتعتبر فكرة الحرب التي لم تنته بعد فعلياً مقبولة في البحث النقدي حول 1948، كما ينعكس ذلك في أعمال نوغا قدمن وأرثيلا أزو لاي، على سبيل المثال.

يمكن اعتبار كتاب نوغا قدمن "على حافة الطريق وعلى هامش الوعي"¹ على أنه العمل الأكثر شمولية حول التطهير العرقي الذي أقدمت عليه إسرائيل في العام 1948 من خلال استعمال أنظمة ترسيم الأرض الخاصة بالتحكم بالذهنية. تطلعتنا قدمن على أن تهويد الحيّز هو تهويد الذاكرة أيضاً والعكس. وتصّرّ بحق على أنه: "من شأن فحص نظرة المجتمع الإسرائيلي إلى القرى العربية المهجرة عام 1948... أن يُستعمل معياراً لقياس درجة الاستعداد الإسرائيلي للتوصل إلى حلٍّ للصراع قابل للحياة"². إن نفي تاريخ العرب يختزل

¹ نوغا قدمن (2008). على حافة الطريق وعلى هامش الوعي: نفي القرى العربية المهجرة في 1948 من

الخطاب الإسرائيلي، تل أبيب: سفري نوفمبر. [بالعبرية]

² المصدر السابق، ص 14.

من حجمهم في الصراع كما يفهمه الإسرائيليون، وينتج تقليصاً للإمكانيات المتاحة أمامهم أيضاً.³ إنه استنتاج هام. إن الجهل في إسرائيل بما يتصل بالتاريخ من وجهة نظر النكبة ليس فشلاً تربوياً فحسب بل فشلاً أخلاقياً أيضاً. لا تزال إسرائيل الرسمية تصرّ، كمن يُخفي أمراً رهيباً في جعبته، على قمع النقاش حول مسألة 1948 من خلال استعانتها بأدوات متطورة لتكنولوجية الذاكرة، كمناهج التدريس التي لا تتضمن نقاشاً حول التاريخ العام لحرب 1948 إنما تعرض النسخة اليهودية فقط. كذلك فقد تمّ طمس مسألة 1948 في الوعي المدني الإسرائيلي وفي الفكر السياسي الذي قام على صياغة نموذج "دولة يهودية وديمقراطية" استناداً إلى أنظمة ملتوية لإضفاء الشرعية. وقد وصل الأمر إلى درجة أن قام البرلمان الإسرائيلي في أيار 2009 بالتصديق الأولي على اقتراح قانون يُفرض عقوبة السجن على من لا يعترف بطابع إسرائيل كدولة "يهودية وديمقراطية"، وبالمقابل اقترحت اللجنة الوزارية للتشريع التابعة لحكومة إسرائيل قانوناً يسعى إلى فرض عقوبة السجن على من يحيي ذكرى النكبة. حقيقة لم يصادق البرلمان الإسرائيلي على صيغة اقتراح القانون ولكن من شأنه أن يشير إلى درجة جزع إسرائيل الرسمية من فتح ملف 1948.

والعمل الآخر الذي يشير إلى استخدام يربط بين الأرض والسكان هو معرض الصور لأرنيللا أزولاي الذي افتتح في مقر منظمة "ذاكرات".⁴ يمكننا عبر رؤية الصور الرسمية للدولة أن نتعلم عن الأنظمة التي تمّ استخدامها للتطهير العرقي: تصنيف، استحداث قوالب زمن مُعرّنة، فصل بين السكان والأرض، فصل بين النساء والرجال، إنشاء مخيمات للأسرى ومخيمات اعتقال، مجازر واغتصاب، تخويف، هدم القرى وطرد السكان. تصف أزولاي العملية الكفكائية التي من خلالها تحولّ بعض لاجئي 1948 إلى "أسرى حرب" على تراب أرضهم، وتمّ تحويلهم في نهاية الحرب باتجاه الأردن بوصفهم "أسرى محرّرين". قام القانون الإسرائيلي الجديد بتحويلهم إلى لاجئين أبديين. ووجد قسم من الفلسطينيين الذين بقوا ضمن حدود الخط الأخضر أنفسهم داخل "أحيزة مؤقتة" تحولت فيما بعد إلى "مخيمات مؤقتة"؛ بقي قسم منهم داخل غيتوات في المدن. إلى جانب ذلك، قام الصندوق القومي لإسرائيل بطمس معالم التطهير العرقي ومصادرة الأراضي، بعدة وسائل، من بينها غرس الأحراش على أنقاض القرى المهْدمة. لم يتسنّى للفلسطينيين مواطني دولة إسرائيل مقاومة إنشاء الدولة اليهودية لأن مثل هذه المقاومة تحولت بين ليلة وضحاها إلى مقاومة النظام.

وعودة إلى فوكو. يقول فوكو إن القانون والسياسة المُشنتقة من القانون هما استمراراً للحرب بطرق أخرى، وبقوله هذا يسعى إلى اقتراح فحص عكسي لمقولة كارل فون كلاوزفنتش

³ المصدر السابق، ص 23.

⁴ أرنيللا أزولاي (2009). **عنف متشكّل، 1947-1950: علم الأنساب المرئية لنظام و"كارثة من منظارهم"**، تل أبيب: رسلينغ.

المشهوره بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى بديلة. إن الحرب التي يتحدّث عنها فوكو هي الحرب بين الطبقات والأعراق والأقوام – أو دمج بين جميعها القائمة قبل تشكيل القانون – الحرب التي يتم إخفاءها في أعقاب تشكيل القانون. يرسم لنا فوكو هنا طريقًا جديدة لفهم التاريخ – ليس عبر خطاب الحقوق الكوني (حقّ سابق، حقّ طبيعي، حقّ الملكية، حقّ التصويت، حقّ بحرية التعبير) – وإنما من خلال خطاب الحرب، كحرب العام 1948 التي لم تنته بعد. إن هذه الطريق الجديدة أسهمت في بحث **جوش عميت**، مؤلف المقالة الافتتاحية لهذا العدد. يشير عميت إلى حقيقة مفادها أن حرب 1948 لم تنته بعد. يقوم جوش بتمثيل هذا الادعاء من خلال التوقف عند أحد الأوجه غير المشهورة لحرب 1948: قصة تجميع كميات هائلة من الكتب تم الاستيلاء عليها من المكتبات الفلسطينية والبيوت المهجرة للفلسطينيين اضطروا إلى ترك أحياءهم الغربية في القدس، والسرقة "العقلانية" بيد المكتبة القومية. تطلّعتنا المقالة على كيفية استخدام المكتبة القومية والجامعة العبرية في القدس ذراعًا ثقافيًا للاحتلال والسرقة والسلب بحجة "أهداف رسمية"، وكيف تمّ استخدام أساليب التصنيف والتوثيق "العقلانية" لسدّ الطريق أمام فرصة إعادة الكتب المسروقة إلى أصحابها. يقوم الكاتب بمعاينة عملية نهب الكتب الفلسطينية من خلال أنظمة القانون الدولي التي وضعت في أعقاب عمليات نهب شبيهة خلال الحرب العالمية الثانية.

يتضمن هذا العدد ستة مقالات في مواضيع أخرى مختلفة. تقوم مقالة **دانييل بويارين** بمناقشة التفسير المعياري للتلمود البابلي. يشير الكاتب إلى وجود عملية حوارية في النصّ التلمودي لا تعكس اختلافات بالرأي فحسب وإنما تحتجّ على المنهج الشرعي الخاص بالشرعية اليهودية برمتها. استنادًا إلى ميخائيل باختين، يقوم الكاتب بقراءة التلمود بوصفه نصًّا أدبيًّا بغية الإشارة إلى "الرابط بين اللسان الورعة أو الجدّة للتلمود البابلي وبين أسننته الهائجة والغريبة على نحو مضحك"، بعبارات الكاتب.

يقوم **يوفال عفري** بتحليل رواية "وهو آخر" للكاتب اليهودي-العراقي شمعون بلاص بغية وضع ملامح نظرية واسعة لفهم العلاقات القائمة بين القومية والإثنية وفهم سياسة الهوية في الدولة القومية الحديثة. يشير عفري، من خلال الاستعارة القومية، إلى أوجه التشابه بين مواصفات شخصية سوسان، يهودي عراقي قرّر أن يتحوّل إلى الإسلام، وبين مواصفات القومية العراقية، ومن خلال ذلك يكشف عن هشاشتها وطابعها المؤقت. ولكن العكس صحيحًا أيضًا: يستعمل شمعون بلاص اللغة العبرية، لغة القوم الصهيوني، وعمليًّا فإنه يعمل ضمن اللغة. إن عملية نزع الصفة الإقليمية التي يفرضها بلاص على اللغة العبرية تتيح له تفكيك التقسيمة الثنوية بين الحيّز العربي والحيّز الصهيوني ويستحدث بهذا تفسيرًا يربط بين هذين الحيّزين.

يسعى **دانييل دي مألخ** إلى توجيه نقدًا لخطاب العولمة الذي ساد في إسرائيل ويدّعي أن مبناه وفرضياته الأولية تدفع بحقيقة الاضطهاد على أسس قومية وإثنية إلى الهامش. لا

ידעי הכאב אן קטאב אל קטאב אל עולמה גיר ותיק الصلة بالموضوع، بل العكس من ذلك: يقترح الكاتب فحص الاضطهاد الإثني والقومي ضمن سياق العولمة ولكن بصورة مغايرة عن تلك التي يقترحها خطاب العولمة المعياري. وبصورة خاصة يقوم الكاتب بالإشارة إلى تأثير "الإمبراطورية" بمفهومها الواسع والاستناد إلى الإمبراطورية الأمريكية التي تُستخدم للحفاظ على الوضع القائم في إسرائيل والشرق الأوسط.

يحاول كل من **طالي ليف** و**يهودا شنهاف** تحليل منظومة العلاقة التي كانت تربط حركة الفهود السود بحركة متسبين المناهضة للصهيونية، التي ظهرت وقت ظهور حركة الفهود السود. ويعتمد تحليلهما على وثائق من جهاز استخبارات الشرطة التي تم فتحها أمام الجمهور في أرشيف الدولة. لقد كان سائدًا في الأدبيات التاريخية (وتلك التي كانت تعتبر نقدية أيضًا) أن حركة متسبين زوّدت حركة الفهود السود بالمعلومات والأدوات الأيديولوجية لأنشطتها المختلفة. تكشف هذه الوثائق عن عدم صحة هذا الادعاء. فقد تمّ شحذ العلاقة بين حركة متسبين وحركة الفهود السود على يد الدولة وبخاصة على يد شرطة إسرائيل بغية إضفاء عدم الشرعية على حركة الفهود السود. تمّ صياغة هذه العلاقة في النقاش الجماهيري العام بحيث تصدّق على الهرمية الإثنية القائمة بين الحركتين. فقد تمّ وصف الإشكناز من حركة متسبين بأنهم مفكرون، ووصف الشرقيين في حركة الفهود السود بأنهم غير متعلمين ومعدومي القدرة على القيادة. يدّعي الكاتبان أن حركة متسبين طرحت فعليًا جدول أعمال طبقي تُعارض مع الصراع القائم على أساس الهوية الشرقية.

يطرح كل من **ألبرطو سيكتوروفسكي** و**دانه ميلس** تحديًا كبيرًا لفكر التعددية الثقافية. تركز مقالتهما على العلاقات القائمة بين الطوائف والمجموعات الإثنية/العرقية وبين الدولة القومية الديمقراطية. يقوم الكاتبان بوصف نوعًا من اليمين العنصري الذي يستخدم النموذج الليبرالي للتعددية الثقافية بغية إقصاء مجموعات سكانية على أساس طبقي وعرقي. ويدعيان أن "تطرّف خطاب التعددية الثقافية"، بعبارةتهما، لعب دورًا بيد اليمين الجديد في محاولته استحداث نظامًا جديدًا للفصل العنصري (أبارتهايد) يستند إلى شرعية من نوع جديد، وقد نجح في زعزعة النموذج بكامله. ويستخدم اليساريون المعارضون للتعددية الثقافية في إسرائيل الادعاء ذاته ويضيفوا إليه ادعاءات أخرى بشأن الأوجه الطبقيّة والجنوسية للظاهرة.

يدعونا **أورن براك** إلى التفكير – بحذر شديد – بأوجه الشبه القائمة بين لبنان وأرض إسرائيل/فلسطين بغية فهم أكبر للحالتين، وتطوير نظرة نقدية لنموذج الدولة القومية الذي تطوّر في أوروبا الغربية. يدّعي الكاتب أن هذين المشروعين القوميّين قد استحدثا نموذجين للدولة ما بعد الكولونيالية: دولة ضعيفة عسكريًا ولكنها تتحلّى بالشرعية بين الغالبية المطلقة للمواطنين، وكيانًا سياسيًا يتسلّح بقوة عسكرية واقتصادية ولكنه يعاني من أزمة أخذه بالازدياد على صعيد الشرعية. تتصل مقالة الكاتب بصلب المسألة السياسية المركزية التي

תواجه إسرائيل: مكانتها في الشرق الأوسط وتعاطي النموذج السياسي الذي خلقتة مع الطيف السياسي والثقافي.

تتضمن زاوية الكتب ثلاث قراءات. يقوم **الموج بهار** بقراءة مقارنة لمجلة "كيفون مزراح" و"هُو!" من خلال عقد مقابلات مع محرريهما. يناقش كل من **يعر حيفر** و**بيير عدنيل** في اللسانيات العبرية عبر قراءة كتابين في هذا المجال نُشرا في السنين الأخيرة.

إضافة على زاوية الكتب، يتضمّن هذا العدد خمس مواد أخرى: يحاول **نوعم يورن** قراءة الأزمة المالية عبر **ماركس ووبلن**؛ وقامت **ميخال بن-خفتالي** بترجمة خطاب **جوليا كريستبا** الذي ألقته في مناسبة تسلمها جائزة حانه أرنت للفكر السياسي؛ تدمج **إفرات روتم** بين نظرية وشذرات من سير ذاتية بغيّة الحديث عن الجسد المثلي-الرجولي؛ ويقرأ **ينتسحاق بنياميني** أسماء الأب عند لاكان؛ وتحلل **يعيل مشعالي** الهوية الشرقية من منظور مثلي.